منشورات

جامعة حلب
معهد التراث العلمي العربي

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
معهد المخطوطات العربية

مصادر ودراسات في تاريخ الطب العربي - ٥



من مؤلفات ابن سينا الطبية

كتاب دفع المضار الكلية عن الابدان الانسانية
- الارجوزة في الطب - كتاب الادوية القلبية

دراسة وتحقيق

الدكتور محمد زهير البابا
استاذ العقاقير وتاريخ الصيدلة في جامعة دمشق

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

الإهداء

الى العاملين في احياء التراث العلمي العربي
من مؤسسات وعلماء وباحثين
أهدي هذا الكتاب الجامع لبعض مؤلفات
الشيخ الرئيس ابن سينا .

المحقق





تمهيد

يعتبر ابن سينا علماً من اعلام الطب والفلسفة في تاريخ العلوم . ونظراً للشهرة العظيمة التي نالها بعد مماته فقد تنازع على أصله ، وتسابق إلى الاحتفال به ، عدة شعوب شرقية وغربية .

كان الاتراك أول السباقين إلى ذلك ، فقد اقامت الجمهورية التركية ، عام ١٩٣٧ م مهرجاناً ضخماً احتفاء بذكرى مرور تسعمائة عام (حسب التقويم الغريغوري) على وفاته . وحذا حذوهم العرب ثم الايرانيون ، فأقاموا مهرجانين متعاقبين ، الأول في بغداد عام ١٩٥٢ ، والثاني في طهران عام ١٩٥٤ ، وذلك بمناسبة الذكرى الألفية لمولد الشيخ الرئيس، حسب التقويم الهجري .

وفي عام ١٩٧٨ قررت منظمة الأمم المتحدة ، للتربية والعلوم والثقافة (الاونسكو) دعوة جميع الدول ، الاعضاء في المنظمة ، للاحتفال بالذكرى الألفية لمولد ابن سينا (حسب التقويم الغريغوري) اعترافاً بفضله في تطور الفلسفة والمنطق وعلم الاجتماع والادب والشعر والعلوم الطبيعية والطبية . وقد لبت جميع الدول هذا النداء وشاركت في تكريمه خلال عام ١٩٨٠ م .

مما لاشك فيه ان ابن سينا كان فارسي الأصل ، لكنه كان عربي اللغة ، اسلامي الثقافة والعلم . وقد احصيت مؤلفاته فبلغت (٢٧٦) [١] بين كتاب ورسالة ، دونت جميعها باللغة العربية ، عدا بعض الرسائل الصغيرة كتبها بلغة الأم .

لقد كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية الشائعة في جميع بلاد العالم الاسلامي ؛ لذلك فقد انتشرت أفكار ومؤلفات ابن سينا من بلاد السند حتى اقصى المغرب . وأصبح بذلك أشهر طبيب وفيلسوف في العالمين العربي والاسلامي ، خلال القرون الوسطى .

---

١) مؤلفات ابن سينا للأب جورج شحاته قنواتي (طبع القاهرة — ١٩٥٠) .

لم يمض قرن على وفاة ابن سينا حينما بدأ المترجمون في أوربا بنقل مؤلفاته في الفلسفة والطب إلى اللغتين العبرية واللاتينية . وقد كان لآرائه العلمية والفلسفية صدى كبير لدى كثير من العلماء والمفكرين المسيحيين ، من رجال القرن الثالث عشر، وفي مقدمتهم البير الكبير ، وروجر بيكون .

مما لاشك فيه أن أشهر كتاب ألفه ابن سينا ، وذاع صيته في الشرق والغرب ، هـو كتاب القانون . فقد ظل مرجعاً هاماً للعلوم الطبية ، في جامعات أوربا ، حتى عصر النهضة(١) .

ولكن ابن سينا ترك، إلى جانب كتاب القانون، مجموعة من المؤلفات الطبية الهامة ، أكثرها لم يطبع ، أو لم يحقق حسب الاصول . لذا فقد انتهزت فرصة توقيع اتفاقية التعاون ، بين معهد التراث العلمي العربي بحلب ، وبين معهد المخطوطات العربية ، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، والتي تنص على تشجيع طبع ونشر كتب التراث العلمي العربي بعد تحقيقه ، فتقدمت إلى ادارة معهد التراث طالباً مساعدتي على نشر بعض مؤلفات ابن سينا الطبية ، التي قمت بتحقيقها ودراستها .

وقد لاقيت من ادارة المعهد المذكور ومديره الأستاذ الدكتور خالد ماغوط كل ترحيب وتشجيع ، فلهم مني جزيل الشكر والثناء . كما انني اتوجه بشكري وتقديري إلى الأستاذ الدكتور محمد علي حورية رئيس جامعة حلب لموافقته على طبع هذا الكتاب .

وأخيراً أرى واجباً علي أن أنوه بالمساعدة والمعونة الفنية ، التي لقيتها من جميع موظفي معهد التراث ، وأخص منهم بالذكر الأستاذ سمير قمند ، والآنسة صفاء مسلاتي والسيد محمد قضيماتي والسيدة سميرة قمري .

وكذلك موظفي مطبعة الجامعة وأخص منهم بالذكر مدير المطبعة السيد ابراهيم محمد والسادة عبد العزيز حجار وأحمد عجم ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً والسلام .

الدكتور محمد زهير البابا

---

١) جاء في المجلة التي تصدرها اليونسكو ، عدد تشرين الأول عام ١٩٨٠ ، ان كتاب القانون ظل يدرس في جامعة بروكسل في بلجيكا حتى عام ١٩٠٩ .

مقدّمة عامّة

يقول الدكتور لوسيان لوكلرك ، في كتابه تاريخ الطب العربي[1] ، ان ابن سينا لم يترك عدداً كبيراً من المؤلفات الطبية ، إذا قيس بغيره من أطباء زمانه ، كالرازي مثلاً . ولكنه يستدرك بعد ذلك فيقول : ان كتاب القانون ، الذي وضعه ابن سينا ، هو من ناحية الإحاطة والشمول ، موسوعة كبيرة ، استوعبت زبدة ماقاله الأطباء القدامى والمحدثون ، حتى زمنه .

بالحقيقة ، ان مؤلفات ابن سينا الطبية كثيرة العدد ومتنوعة ، ولكن أغلبها اما مفقود أو مبعثر في خزائن المخطوطات ، الموجودة في بلاد الشرق والغرب . ويكفي أن نلق نظرة على اسماء كتبه ورسائله في الطب ، مما ورد ذكـــره في كتاب عيون الانباء في طبقات الأطباء ، حتى نتأكد من صحة هذا القول .

لقد احصى الدكتور لوكلرك مؤلفات ابن سينا الطبية ، الموجودة في المكتبات الاوربية ، والتي لم تترجم إلى اللغة اللاتينية ، فكان عددها تسعة وهي :

١ ــ مقالة في الهندبا .
٢ ــ موجز في الطب (ترجم إلى العبرية) .
٣ ــ مقالة في النبض (كتبت بالفارسية)
٤ ــ مقالة في القوى الطبيعية .
٥ ــ قوانين ومعالجات طبية .
٦ ــ عشرون مسألة سأله عنها بعض اهل العصر
٧ ــ تعاليق على مسائل حنين في الطب .
٨ ــ رسالة في القولنج .
٩ ــ عدد من الارجوزات القصيرة ، ذات مواضيع طبية مختلفة .

---

١) الجزء الاول صفحة (٤٧٠) . Histoire de la Médecine Arabe

ولما قام معهد المخطوطات العربية ، التابع لجامعة الدول العربية ، بسعيه المشكور ، للحصول على نسخ مصورة للمخطوطات النـــادرة[٢] ، والموجودة في خزائن الكتب المشهورة ، أضاف للقائمة السابقة الرسائل الآتية :

١٠ – رسالة في الباه .

١١ – رسالة في حفظ الصحة .

١٢ – رسالة في حمى شطر الغب

١٣ – رسالة في الفصد

١٤ – مسائل معدودة من املاء الشيخ الرئيس .

١٥ – رسالة في معرفة النفس والنبض ، وهي الرسالة الموسومة بالفصول المستفادة من مجلس الشيخ رئيس الحكماء .

١٦ – رسالة في دفع المضار الكلية عن الأبدان الانسانية .

وقد عثرت ، أثناء بحثي في فهارس المخطوطات ، على مخطوطتين ، لم يرد لهما ذكر فيما سبق ، وهما :

١٧ – رسالة في حدود الأشياء ورسومها ، محفظوظة في مكتبة الاسكوريال بمدريد ، رقمها (٦ / ٨٤٤) .

١٨ – رسالة في أسرار الجماع ، محفوظة في دار الكتب المصرية ، رقمها (٥٤٩ – طب طلعت) .

من المعلوم ان اشهر مؤلفات ابن سينا في الطب هما : القانون والارجوزة .

أما القانون فقد طبع عدة مرات باللغة العربية ، كما يوجد له نسخ مترجمة إلى عدة لغات أقدمها باللغتين اللاتينية والعبرية . ولم يجر حتى الآن أي دراسة علمية صحيحة للمقابلة بين هذه النسخ . ويكفي أن أورد خلاصة ماجاء في نهاية طبعة بولاق ، وهي أكثر النسخ العربية تداولاً ، لكي أبين ماسيكشفه هذا التحقيق من مفارقات .

لقد جاء في نهاية هذه الطبعة ، التي تمت في اواخر جمادى الثانية من عام ١٢٩٤ هـ ، الملاحظة التالية : « كان أحضر لطبع هذا الكتاب ، الذي هو حريّ بالاعتناء واصابة

٢) فهرس المخطوطات الطبية – وضع الاستاذ ابراهيم شبوح – طبع عام ١٩٥٩ .

الصواب ، نسخة من البلاد الأجنبية ، وذلك لعزّة وجوده بالبلاد المصرية . فعند المقابلة عليها وجدت تراكيبها مختلة ، وليس بها عبارة صحيحة ، كما يدرك ذلك من أوتى قريحة . فتوقفت المطبعة عن اجراء الطبع عليها لعدم الوثوق بها والالتفات عليها . ثم ان من له الفضل أعلى مكانه ، سعادة حسين بك مدير المطبعة والكاغدخانه ، امعن غاية الامعان في احضار نسخة اخرى تكون بالمقابلة عليها أحرى . فظفر بطرف من له في محاسن الاخلاق أعلى المراسم ، سعادة حسن باشا راسم ، بنسخة قديمة ، تاريخها قريب من سنة سبعمائة .... » .

اما ارجوزة ابن سينا فنسخها المخطوطة والكاملة نادرة ، شرحها كثيرون ولكن لم يجر لها دراسة وتحقيق باللغة العربية . واذا كان كتاب القانون، هو المرجع الأساسي لعلماء الطب خلال القرون الوسطى،فإن الارجوزة كانت معتمدة كمقرر دراسي لطلاب الطب ، لأنها تعتبر موجزاً له .

ولابن سينا من المؤلفات الطبية الهامة ايضاً كتاب دفع المضار الكلية عن الأبدان الانسانية،وكتاب الادوية القلبية . ويضم الأول منهما مواضيع مبسّطة في حفظ الصحة، تنفع كل طالب للعلم والثقافة . أما الثاني ، أي الادوية القلبية ، فهو مؤلف لــه صفة الاختصاص . وقد جمع فيه ابن سينا بعض النظريات الفلسفية المتعلقة بالروح والجسد ، إلى جانب كثير من العقاقير الطبية وبعض الخرافات الشعبية،المتعلقة بالادوية والمداواة ، وهو كتاب طبع دون تحقيق أيضاً .

لقد سعيت إلى جمع هذه المؤلفات الثلاثة الأخيرة في كتاب واحد ، لأنها تمثل ، إلى جانب كتاب القانون ، ذروة علوم الطب العربي في العصر الوسيط .

وسأجزئ كتابي هذا إلى ثلاثة أقسام ، أبحث في كل قسم ، على الترتيب ، احد مؤلفات ابن سينا الآتية : ١) دفع المضار الكلية ٢) الارجوزة ٣) الادوية القلبية .

كما سأقوم بدراسة وتحقيق النسخ المخطوطة من كل منها ، راجياً أن يكون عملي هذا محققاً للهدف الذي أصبو اليه ، وهو احياء التراث العلمي العربي ، والله الموفق لما فيه الخير والصواب .

المحقق

ابن سينا

(٣٧٠ – ٤٢٨) ه / (٩٨٠ – ١٠٣٧) م

« ألقابه – سيرة حياته – عبقريته وعلمه – عقيدته – خاتمة »

اسمه وألقابه : هو ابو علي الحسين بن عبدالله بن حسن بن علي ابن سينا[١] .

أطلق عليه طلابه ومريدوه ، ألقاب التعظيم ، احتراماً لشأنه . فهو بنظرهم حجة الحق ، رئيس العقلاء ، أمير الأطباء ، ابقراط العرب ، ارسطو الاسلام . كما لقبه بعضهم بالمعلم الثالث[٢] . إلا أن أكثر الألقاب التصاقاً باسمه كان الشيخ الرئيس . وحينما تولى الوزارة أطلق عليه لقب شرف الملك .

سيرة حياته[٣] : روى ابن سينا سيرة حياته لتلميذه وصاحبه ، ابي عبيد الجوزجاني[٤] ، ونقلها هذا على لسانه فقال :

« كان أبي رجلاً من أهل بلخ ، انتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور[٥] . واشتغل بالتصرف ، وتولى العمل في أثناء ايامه بقرية يقال لها خَرْمَيثن ، من ضياع بخارى ، وهي من امهات القرى . وبقربها قرية يقال لها أفشنة ، تزوج ابي منها بوالدتي . وقطن بها وسكن ، وولدت له بها كما ولد أخي ، ثم انتقلنا إلى بخارى ... »

١) يقول بعضهم أن ابن سينا لقب – وقيل أن سينا هو الجد الثالث للشيخ الرئيس – وفي رواية اخرى منقولة من كتاب الخوارزمي (مفيد العلوم ومبيد الهموم) تقول بأن سينا هو اسم قرية إلى جانب بخارى . وقد ناقش هذا الموضوع الدكتور الشطي في كتابه (ابن سينا وأثر طبه في العالم) صفحة (٧) .

٢) المعلم الاول ارسطو والثاني الفارابي والثالث ابن سينا .

٣) وردت مقتطفات من سيرة حياة ابن سينا في عدة مؤلفات منها : تاريخ الحكماء للقفطي صفحة (٤١٣ – ٤٢٥) – عيون الأنباء الجزء الثاني (١ – ٢٩) – الوافي بالوفيات الجزء (١٢) صفحة (٣٩٢ – ٣٩٤) – تاريخ مختصر الدول لابن العبري ، صفحة (١٨٧ – ١٨٩) .

٤) جوزجان مدينة بخراسان

٥) امير ساماني تولى خراسان بين عامي (٣٦٦ – ٣٨٧) ه .

ويمضي ابن سينا في روايته ، فيذكر بأنه تعلم القرآن وكثيراً من الأدب ،بعد أن أتم العاشرة . وكان ابوه على مذهب الاسماعيليين ، يعقد في منزله جلسات يتذاكر فيها مع بعضهم بالفلسفة والهندسة وحساب الهند ....

وصدف أن جاء إلى بخارى رجل متفلسف يدعى أبو عبدالله الناتلي[1] ، فدعاه والد ابن سينا إلى منزله ، وطلب منه ان يعلم ابنه الفلسفة والمنطق . الا أن الطالب ، كما يظهر ، بذّ أستاذه ، فاستغنى عن علمه . واخذ يقرأ ويفسر لوحده ، أشهر المراجع العلمية المشهورة في زمانه ، مثل كتاب اقليدس[2]، والمجسطي[3] وغيرهما .

ثم رغب ابن سينا في تعلم الطب ، لأنه وجده من العلوم السهلة ، وخلال مدة قصيرة بدأ فضلاء الطب يقرؤون عليه هذا العلم ، ولما يبلغ الستة عشر عاماً . وقد قرن العلم بالعمل ، متعهداً العناية بالمرضى ، فانفتحت له ابواب كثيرة في المعالجات حتى شاع ذكره .

كان سلطان **بخارى** في ذلك الوقت نوح بن منصور ، فاستدعى ابن سينا لمعالجته من مرض استعصى على الأطباء شفاؤه . فانتهز ابن سينا فرصة وجوده في قصر الأمير ، وطلب الإذن بالدخول إلى دار الكتب ، الملحقة بالقصر ، للمطالعة . ويقول إنه رأى فيها من الكتب مالم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، فقرأها وظفر بفوائدها .

ولما بلغ ابن سينا الثامنة عشر من عمره فرغ من التعلم وبدأ بالتأليف ، بناء على رغبة بعض الوجهاء وأصحاب النفوذ من محبي العلم ، أمثال أبي الحسين العروضي ، وأبي بكر البرقي ، وأبي الحسين السُهلي ، وأبي محمد الشيرازي .

---

١) ناتل مدينة بطبرستان .

٢) Euclide عالم يوناني ، كان يدرس الهندسة في مدينة الاسكندرية زمن بطليموس الأول (٣٠٦ – ٢٨٣)ق.م واليه ينسب وضع أول كتاب في الهندسة المسطحة .

٣) كتاب وضعه عالم فلك يوناني ، عاش في القرن الثاني للميلاد بمدينة الاسكندرية ، اسمه كلود بطليموس . ويبحث هذا الكتاب بالجغرافيا الطبيعية ، وفيه يعتبر الأرض كرة ثابتة في الفضاء تدور حولها الكواكب .

حاول ابن سينا ، أثناء حياته ، ان يتقرب من الأمراء والملوك ، فاستطاع بواسطة الوزير أبي الحسين السهلي أن يتصل بأمير **كركانج** ، علي بن مأمون . فأثبت له المذكور مشاهرة كافية . إلا أن الضرورة ، كما قيل ، دعت ابن سينا إلى مغادرة كركانج ، فرحل عنها متنقلاً في عدة مدن قاصداً الأمير قابوس(1) في **جرجان** . فاتفق أثناء ذلك أن أُخذ قابوس وسجن في بعض القلاع حيث توفي،فتابع ابن سينا طريقه إلى **دهستان** ، حيث مكث فيها فترة قصيرة ، مرض خلالها مرضاً صعباً ، وأخيراً عاد إلى **جرجان** ، ومكث فيها مدة عامين .

تعرّف ابن سينا في هذه المرحلة على وجيه يدعى أبو محمد الشيرازي ، فصنف له كتباً كثيرة ، أشهرها : المبدأ والمعاد — الارصاد الكلية — مختصر المجسطي ، كما بدأ بوضع كتاب القانون .

انتقل ابن سينا بعد ذلك إلى مدينة **الريّ** ، حيث اتصل بخدمة السيدة ، وابنها مجد الدولة(2) . وكان الأمير المذكور مصاباً بغلبة السوداء ، فاشتغل ابن سينا في مداواته .

وحينما سمع ابن سينا أن شمس الدولة(3) ، أمير همدان ، مصاباً بقولنج عسر شفاؤه ، شد الرحال إليه ، وعالجه حتى شفاه . وقد فاز من ذلك بخلع كثيرة ، وصار من ندمائه المقربين ، ثم تقلد الوزارة في بلاطه .

إلا أن العلاقة ساءت بين ابن سينا وبين العسكر ، فاعتقلوه وأودعوه السجن ، وطالبوا بقتله(4) . ولكن شمس الدولة اكتفى بنفيه ، فلجأ إلى منزل احد اصحابه ، محتجباً عن الأنظار ، فترة من الزمن ، وبدأ خلال ذلك بكتابة موسوعة الشفاء .

---

1) هوشمس المعالي قابوس بن وشمكير الزياري أمير جرجان (٣٦٦ — ٤٠٣) ﻫ .

(2) — (3) من آل بويه : وهي أسرة فارسية من الديلم كان لها شأن كبير في تاريخ الخلافة العباسية ، مؤسسها ابو شجاع بويه . التحق اولاده الثلاثة (علي وحسن وأحمد) بخدمة مرداويج بن زيار المناوىء لمحكم . واستطاع أحمد أن يدخل مدينة بغداد حينما سادتها الفوضى نتيجة ثورة الجنود الأتراك . فاستقبله الخليفة المستكفي عام (٣٣٤ ﻫ — ٩٤٥ م) وجعله أمير الأمراء ، ومنحه لقب (معز الدولة) ثم أصبحت الخلافة ألعوبة بيد امراء آل بويه خلال فترة تزيد عن قرن .

4) اتهم ابن سينا بالزندقة والكفر وبمعارضة القرآن . واتخذوا من بعض خطبه في التوحيد والالهيات دليلاً على ذلك .

ولما عاود الأمير القولنج ، اضطر لاستدعائه والاعتذار منه ، وأعاده للوزارة حيث بقي حتى وفاة شمس الدولة عام ٤١٢ ه .

وحينما بويع سماء الدولة(١) ، بعد وفاة أبيه، عرضت الوزارة على ابن سينا فرفضها . ثم اتهمه الوزير تاج الدولة بمكاتبة علاء الدولة أمير أصفهان ، فأودع ابن سينا السجن للمرة الثانية ، حيث ألف قصة (حي بن يقظان) وكتاب الادوية القلبية . وبعد أربعة أشهر نشبت الحرب بين سماء الدولة وعلاء الدولة فانتصر الثاني .

خرج ابن سينا بعد أن اطلق سراحه من السجن ، متنكراً حتى وصل أصفهان (٤١٤ ه) فاستقبل بالاعزاز والاكرام .

ولما كان علاء الدولة(٢) محباً للعلم والعلماء ، فقد رسم ليالي الجمعات وقتاً ثابتاً لسماع المناظرات ، بين سائر العلماء على مختلف طبقاتهم ، بما فيهم ابن سينا ، فكان الأخير مجلياً في سائر العلوم .

استفاد ابن سينا من فترة الاستقرار ، التي أتيحت له في مدينة أصفهان ، فقام باتمام كثير من المؤلفات التي بدأ بها ، مثل كتاب الشفاء ، والمنطق ، والمجسطي ، واختصر اقليدس والاريتماطيقا والموسيقى ، كما صنف فيها كتاب النجاة وغيره .

كانت حياة ابن سينا القصيرة، تتناوب فيها أيام السعادة والشقاء . ومما لاشك فيه أن النزاع الذي قام بين أهل العقل من الفلاسفة ، وأهل النقل من علماء الحديث والسنة ، كان وراء كثير من المصائب والتهم التي ابتلي بها .

ولكي نفهم السبب في كثرة تنقل ابن سينا وهربه ، من أمارة لأخرى، لابد لنا أن نلقي الضوء على مرحلة تاريخية ، اشتدت فيها النزاعات المذهبية والعرقية ، وكان ابن سينا أحد ضحاياها .

ان أكبر ماتمتاز به الحركة الفكرية في البلاد الاسلامية ، خلال القرن الرابع الهجري ، هو ظهور مذهب الشيعة، الذي يحمل بين طياته الكثير من الأفكار الشرقية القديمة . وقد ألمح الخوارزمي في رسائله ، إلى أن العراق كان الموطن الأول للتشييع ،

(١) و (٢) من امراء آل بويه ايضاً .

وكانت مدينة الكوفة هي مركز نشاط الشيعة . أما في بـــلاد فارس فكان عدد الشيعة قليل ، وأكثرهم يتمركزون في الأماكن الكثيرة الصلة بالعـــراق ، وكانت مـــدينة (قم) أهم مراكزهم (١) .

لقد انقسم العالم الاسلامي ، منذ وقعة صفين (٣٧ ه) إلى فرقتين متعارضتين : فرقة تعتقد أن علياً افضل الجميع ،أي انه أحق الصحابة بالامامة والخلافة،وفرقة الخوارج التي حكمت بكفر علي لقبوله التحكيم . ثم قامت فئة اخرى سعت للتوفيق بين الطرفين ، عرفت باسم المرجئة ، فلم تحكم بكفر علي وشيعته ، كما قال الخوارج ، ولم تقل بأن الامامة هي ركن من اركان الدين ، وان النبي رشح علياً لها ، كما تقول الشيعة .

وفي زمن الخليفة هشام بن عبدالملك ظهرت (مشكلة القدر) التي كان لها أثر كبير في زيادة تعدد الفرق في الاسلام . وظهرت على اثرها فرقة القدرية وفرقة الجبرية (او الجهمية). وقد سعى أتباع كل من هذه الفرق إلى التماس مايؤيد دعوتهم من نصوص ، أو يؤولون مايخالفها . وفي أواخر القرن الأول للهجرة ظهر عالم فقيه ، اشتهر بفصاحته وتصوفه ، هو الحسن البصري ، فناقش آراء أصحاب هذه الفرق ، مستنداً إلى العقل والمنطق ، ومات عام (١١٠ ه – ٧٢٨ م) .

كان النقاش بين أصحاب الفرق من المسلمين يكاد يكون محصوراً بالمجتمع العربي ، ولكن حينما انتشر الاسلام بين شعوب أخرى تكن الكره للعرب ، ولديها رواسب دينية تتعارض مع تعاليم هذا الدين ، قام بعض أفراد من تلك الشعوب ببث أفكار جديدة أدت إلى زيادة عدد الفرق في الاسلام . وكادت هذه الدعوات أن تؤدي إلى تمزيق الاسلام والمسلمين ، لولا أن قيض الله لهذا الدين رجلاً كان تلميذاً للحسن البصري ، هو واصل ابن عطاء(٢) ، رأس المعتزلة ، تلك الفرقة التي سجلت أعظم الصفحات في سبيل الدفاع عن الاسلام .

اتخذ المعتزلة الفلسفة سلاحاً للدفاع عن الدين ، كما سعوا للتوفيق بين الفلسفة والاسلام . الا أن غلاة المعتزلة اندفعوا في تطرفهم ، زمن المأمون ، فسعوا لاخضاع الدين

١) الحضارة الإسلامية (آدم ميتز) صفحة (١١٩) .
٢) كان من الموالي ، ولد في المدينة عام (٨٠ ه) ثم انتقل إلى البصرة حيث توفي عام (١٣١ ه) .

للفلسفة ، وذلك في عدة قضايا كان أشهرها القول بخلق القرآن . وقد دب بسبب ذلك الخلاف بينهم وبين أهل السنة ، وكان الامام أحمد بن حنبل أحد ضحايا تلك المحنة .

بقي الأمر كذلك حتى جاء المتوكل ، فرجحت عندها كفة أهل الحديث والسنة ، وكانت عواطف الناس المكبوتة تغلي حقداً على المعتزلة ، طالبة الانتقام منهم ، لما جرّوه على البلاد من ظلم وويلات ، ومعاقبتهم كمارقين وكفرة .

كانت آراء المعتزلة ، التي تتعارض مع أحكام الدين ، مستمدة من كتب الفلسفة ، وخاصة مؤلفات أرسطو . لذلك انصبت نقمة العامة عليه وعلى كتبه بصورة خاصة ، وعلى جميع الفلاسفة ومؤلفاتهم بصورة عامة .

يقول آدم متز في كتابه حضارة الاسلام « أما من ناحية العقيدة والمذهب فإن الشيعة هم ورثة المعتزلة . ولم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهب كلامي خاص بهم ، فنجد مثلاً عضد الدولة البويهي ، وهو من الأمراء المتشيعين ، يعمل على حسب مذهب المعتزلة . وكان في مذهب الشيعة ، كما كان في مذهب المعتزلة ، مكان لكل ألوان الزندقة »(١) .

لقد كان من سوء حظ ابن سينا أنه عاش في هذا العصر الذي ازدادت فيه الكراهية بين السنة والشيعة ، وبين العامة وأهل العلم والفلسفة ، وكان الخليفة في بغداد القادر بالله . ويقول صاحب شذرات الذهب(٢) « انه في عام ٤٠٨ هـ استتاب القادر بالله طائفة من المعتزلة والرافضة ، وأخذ خطوطهم ، وارسل إلى السلطان محمود يأمره ببث السنة في خراسان » إلا أن السلطان محمود لم يكن بحاجة لمن يوصيه ، فقد سعى منذ عام ٤٠٣ هـ إلى مطاردة الفلاسفة والمعتزلة . ويقول صاحب كتاب البداية والنهاية(٣) « ان السلطان محمود انفذ كتبه إلى جميع النواحي باستقصاء من ينتحل مذهباً من المذاهب التي تخالف أهل السنة والجماعة » .

ويقول ابن الأثير(٤) ، في اخبار عام (٤٢٠ هـ) : ان السلطان محمود ، بعد أن استولى على الريّ صلب من اصحاب الباطنية خلقاً كثيراً ، ونفى المعتزلة إلى خراسان ، وأحرق كتب الفلسفة والتنجيم ... »

١) الحضارة الإسلامية (لآدم ميتز) في القرن الرابع للهجرة صفحة (١٢٥) .
٢) الجزء (٣٠) صفحة (١٨٦) ٣) الجزء (١٢) صفحة (٦) ٤) في كتابه الكامل الجزء (٩) صفحة(١٣٩)

كان السلطان محمود الغزنوي قد طلب من أمير خوارزم ، علي بن مأمون ، ان يوفد إليه بعض مشاهير العلماء الذين تواجدوا في بلاطه بمدينة كركانج . وكان من بينهم ابن سينا والبيروني وابو سهل المسيحي وابن الخمار وغيرهم . فجمع الأمير علي هؤلاء العلماء وأبلغهم رغبة السلطان .

رحب البيروني وابن الخمار بالطلب ورحلا اليه ، أما ابن سينا وابو سهل المسيحي فقد آثرا الفرار إلى جرجان ، حيث توفي ابو سهل المسيحي[1] في الطريق بسبب مشقة السفر ، وكان ذلك عام (٤٠٣ هـ) .

ويقول السمرقندي[2] ، وهو من روى هذه القصة ، ان السلطان محمود غضب لفرار ابن سينا ، اذ كان مراده الاستفادة من مهارته في الطب .

ونحن نظن بأن ابن سينا لو علم بأن رغبة السلطان هي الاستفادة من علمه لذهب اليه ، ولكنه آنس منه شراً ففضل الهرب إلى مكان يحكم فيه الأمراء البويهيون الشيعة ، الذين يستطيعون حمايته ورعايته .

عبقرية ابن سينا وغروره وطموحه :

كان ابن سينا كثير الدأب والمطالعة . وصف نفسه أثناء شبابه فقال : « كنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يدي ، واشتغل بالقراءة والكتابة ، فإذا غلبني النوم ، أو شعرت بضعف ، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ، ريثما تعود إلي قوتي ، ثم أرجع إلى القراءة . وحينما يأخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى أن كثيراً من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام » . ثم يتابع فيقول :

« وكل ماعلمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن ، لم أزدد فيه إلى اليوم ، حتى احكمت حكم المنطق الطبيعي والرياضي ، ثم عدلت إلى الالهي ، وقرأت كتاب مابعد الطبيعة ، فما كنت أفهم مافيه . والتبس عليّ غرضُ واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لي محفوظاً ، وأنا مع ذلك لاأفهمه ولا المقصود به » .

---

١) يقول ابن العبري في كتابه مختصر الدول ، صفحة (١٩٠)،أنه توفي وله من العمر (٤٠) سنة . لكنه لم يذكر كيف تمت الوفاة .

٢) هو العلامة النظامي العروضي ، في كتابه المقالا ت الأربع (جهار مقالة) القصة (٣٦ و ٣٨) .

وقد شاءت الصدف أن يجد ، بيد دلال في سوق الوراقين ، مجلداً ينادي عليه ، فاشتراه بثمن بخس . ولما تصفّحه وجده كتاباً لأبي نصر الفارابي ، في اغراض علم مابعد الطبيعة . فأسرع إلى منزله يقرأه بتمعن ، فاكتشف فيه جميع ماابهم عليه من هذا العلم .

حظي ابن سينا منذ طفولته بعناية والد محب للعلم ، ولكن مما لاشك فيه أن نضجه المبكر ، وانتاجه الغزير وعمق تفكيره ومحاكماته ، كانت مواهب فطرية صقلتها ارادة لاتعرف الكلل ولا الملل . لقد حفظ القرآن وكثيراً من الأدب ، بعد أن أكمل العاشرة ، وأصبح من مشاهير الأطباء وهو في السابعة عشر ، وفرغ من علوم عصره وبدأ بالتأليف بعد أن بلغ السنة الثامنة عشر – وهنالك أمثلة كثيرة ذكرها القفطي وابن أبي اصيبعة وغيرهما من المؤرخين ، وكلها تدل على عبقرية ابن سينا وذكائه وفطنته وسرعة حفظه وتأليفه .

لم يقر ابن سينا بفضل أحد عليه ، في تعلم الطب بصورة خاصة ، وبقية العلوم بصورة عامة – بينما يقول ابن أبي أصيبعة ، في معرض الكلام عن أبي منصور الحسن بن نوح القمري ، نقلاً عن الامام شمس الدين الخسروشاهي ، ان الشيخ الرئيس كان قد لحق هذا (أي ابا منصور القمري) وهو شيخ كبير ، وكان يحضر مجلسه ويلازم دروسه ، وانتفع به في صناعه الطب .

كما أن المؤرخ ،ابن أبي أصيبعة ،يذكر في معرض حديثه عن أبي سهل المسيحي ، نقلاً عن الحكيم مهذب الدين عبدالرحيم ، المعروف بالدخوار الدمشقي ، ان المسيحي هو معلم الشيخ الرئيس صناعة الطب ، وان كان الشيخ قد تميز بعد ذلك في هذه الصناعة ومهر فيها ، كما مهر في العلوم الحكمية ، حتى صنّف كتباً لأبي سهل المسيحي وجعلها باسمه .

مما لاشك فيه ان ابن سينا كان نابغة عصره في الفلسفة والعلوم الطبيعية . وقد بلغ في شبابه مركزاً لم يصل إليه غيره من العلماء ، لذلك فقد اصابه الادعاء والاعتداد بالنفس ، كما صعب عليه أيضاً الاعتراف بفضل أحد عليه وهو القائل :

بأي مأثرةٍ ينقاسُ بي أحـــــــــــدٌ ... بأي مكرمــةٍ تحكينيَ الأمــــــــــمُ
اما البلاغــةُ فاســأل بي الخبير بهـــا ... انا اللسانُ قويمـــاً والزمانُ فـــــم
كانت قنـــاةُ علـــوم الحق عاطلـــةً ... حتى جلاها بشرحي الفهـــم والقلـــم

كما ان غروره دفعه إلى قول هذا البيت المشهور :

لما عظمتُ فليس مــصرٌ واسعـــــي لما غلا ثمــني عدمـــــت المشـــتري

تحقق لابن سينا في شبابه جميع مايصبو إليه . فقد قرّبه الأمراء والملوك ، فأصبح من ندمائهم ووزرائهم ، والمشرف على صحتهم ومرضهم . واجتمع له بذلك نعمة العلم والمعرفة إلى جانب نعمة النفوذ والغنى . وكما يقول المثل العربي : كل ذي نعمة محسود ، لذلك لاعجب ان وجد حاسدوه مايكفي من التهم لزجه مرتين في السجن . وقد شكى أمره إلى الله فقال :

اشكو إلى الله الزمــــان فصرفـــــه أبلى جديد قوايَ وهــو جديــــدُ

مِحَنٌ إليّ توجّهــت فكأنـــــني قد صرت مغناطيــس وهــي حديــد

الا أن ثقة ابن سينا بكفاءته ، وإيمانه بسلامة عقيدته جعلاه يقول :

عجباً لقــــوم يحســدون فضائــلي مابين غيّابي إلى عذالــــــــــــي

عتبوا عــلى فضــلي وذمّوا حكمــتي واستوحشوا من نقصهــم وكمــــالي

إني وكيدهــــم ومــا عتبــوا بــه كالطود يحقر نطحـــه الأوعـــال

وإذا الفتى عــرف الرشــاد لنفســه هانت عليه مــلامــة الجهــــــال

كره الناس ، من ابن سينا ، تعاظمه واستعلاءه ، كما كرهوا انتقاداته الجارحة وتعليقاته اللاذعة . وأخذ عليه النقاد نكرانه لفضل أساتذته ، وتغافله عن ذكر المراجع التي استمد منها علمه . وفيما يلي بعض ماسجل عليه من نقد :

— لقد بدأ ابن سينا حياته العلمية ، كما رأينا ، بدراسة المنطق والفلسفة على يد معلم يدعى أبا عبدالله الناتلي ، فكان جزاؤه منه أنه أنكر فضله ووصمه بالجهل .

— ومرّ على ابن مسكويه ، وهو يدرس لبعض تلاميذه ، فرمى إليه بجوزة وقال له مستهزئاً : هل تستطيع أن تبين لنا مساحة هذه ؟ فكان جواب ابن مسكويه : « أنت إلى اصلاح أخلاقك أحوج مني إلى معرفة مساحـــة هذه الجوزة » .

- وفي مراسلة جرت بين كلٍ من ابي الريحان البيروني وابن سينا ، حول أمور تتعلق بالفلسفة وعلم ماوراء الطبيعة ، هاجم كل منهما أبا بكر الرازي ، وانتقد آراءه . وتساءل فيها ابن سينا ، لم لايبذل الرازي جهـــده في فحص ابـــوال مرضـــاه ، والنظر في برازهم ، لتشخيص عللهم وتركيب الدواء النافـــع لهم ، بدلاً من أن يكلف نفسه البحث في الفلسفة وامور ماوراء الطبيعة ؟ .

- ولعل أصرح ماروي عنه في هذا القبيل قوله في انتقاد فورفوريوس الصوري ، صاحب المقدمة المشهورة ، والمعروفة باسمها الأجنبي (ايساغوجي Isagogue) :

« وكان لهم رجل يعرف بفرفوريوس ، عمل في العقل والمعقولات كتاباً يثني عليه المشّاؤون ، وهو حَشَفٌ كلُّه – وهم يعلمون من أنفسهم أنهم لايفهمونه ، ولا فرفوريوس نفسه . وقد ناقضه من أهل زمانه رجل ، وناقض هو ذلك المناقض ، بما هو اسقط من الأول » .

- ومن الاتهامات التي وجهت إلى ابن سينا أنه كان وراء احتراق مكتبة الأمير نوح بن منصور ، عقب زيارته لها . وكان قصده ، كما قيل ، ألا يطلع أحد على المصادر التي استمد منها علمه . وقد تناقل هذه القصة ودونها بعض أصحاب الأخبار والمؤرخين دون مناقشة ولا تمحيص .

وربما انطبق على ابن سينا ، في هذا الصدد ، قول الشاعر :

ومن دعا الناس إلى ذمّـــــــــــــه ذموه بالحق وبالباطـــــــــــــل

المكانة العلمية لابن سينا ومؤلفاته :

في معرض الكلام عن سيرة حياته ، قال ابن سينا : « فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها ، فكنت اذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معي أنضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي شيء بعده » .

ويعلّق الدكتور الشطي على ذلك فيقول : « ان بعض الباحثين قد اتخذوا من قول ابن سينا هذا حجة ليقولوا عنه بأنه كان جماعاً للعلم ، لم يأت فيه بشيء جديد . على أننا نرى في كلماته المذكورة عن نفسه قولاً يحاكي رأي الطالب الجامعي ، الحديث التخرج ، الذي دعاه تفوقه إلى الاعتزاز بنفسه .

والواقع ان ابن سينا ، حينما أملى ذلك على تلميذه الجوزجاني ، كان لايتجاوز الثانية والثلاثين من عمره . غير أن السنين التي تلتها ، والتي استمرت قرابة ربع قرن ، أكسبت ابن سينا كثيراً من التجارب ، حتى بلغ أسمى مقام في النضوج الفكري والعلمي » .

— ومن التهم ، التي وجهت إلى ابن سينا أيضاً ، ان اغلب آرائه وأفكاره مقتبسة من كتب ابقراط وجالينوس في الطب ، ومن مؤلفات أرسطو في الفلسفة والطبيعيات . ويرد الدكتور الشطي على ذلك فيقول : « لم يكن ابن سينا في الطب مقلداً لأبقراط وجالينوس ، بل جمع بين مدرستيهما ومزج تعاليمهما ، وأضاف اليهما مما حصل عليه من التجارب الخاصة . لقد اهتدى إلى نظريات كثيرة ، ضاع بعضها ، لأنه كان كتبها على قصاصات ، ومات قبل اضافتها إلى الكتاب . ويدل على ذلك قول أبو عبيد الجوزجاني في تتمة سيرة ابن سينا : « وكان قد حصل للشيخ تجارب كثيرة ، فيما باشره من المعالجات ، عزم على تدوينها في كتاب القانون فضاعت — وقد جاء موته المبكر قبل أن يثبتها » .

لقد جرت العادة عند بعض النقاد والمؤرخين ، من المستشرقين الاوربيين ، وممن تتلمذ على يدهم ، ان يقوموا بتشريح الاعمال والأفكار ، التي وردت في المؤلفات المدونة باللغة العربية . وان يحاولوا ردّ كل فكرة علمية ، ذات قيمة أصيلة ، إلى مصدر يوناني ، اعتقاداً منهم أن الكتب التي خلفها العلماء والفلاسفة اليونان ، وخاصة ماظهر منها خلال القرنين الخامس قبل الميلاد والثاني بعده ، كانت مصدر جميع العلوم التي ظهرت في الشرق الأوسط ، خلال القرون الوسطى .

وللجواب على ذلك يقول الدكتور ابراهيم مدكور ، في تصديره لكتاب تاريخ العلوم :

« وللعلم تاريخ طويل ، بدأ منذ مابدأ الانسان يعمل ويفكر . وما سُجل منه يرجع إلى بضعة ملايين من السنين . ولم تقف نشأته عند بيئة بذاتها ولا شعب بعينه ، بل اسهم فيه بنو البشر جميعاً كل بنصيبه » .

ويقول الدكتور سارتون « إن من السذاجة أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد اليونان ، فإن (المعجزة الاغريقية) سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد مابين النهرين وغيرهما من الأقاليم — والعلم اليوناني كان احياء أكثر منه اختراعاً » ..

لقد استورد العرب التراث اليوناني ، بعد بذل كثير من الجهد والمال ، فوصل إليهم على شكل مخطوطات متفاوتة الاصالة والوضوح والكمال ، مبهمة الخط ، مجهولة الهوية في كثير من الأحيان . فعملوا على ترجمتها وتنسيقها وتبويبها وتدارك النقص فيها . وجمعوا إليها ماخلفته شعوب أخرى لاتقل عن الشعب الاغريقي حضارة وتقدماً . ثم قاموا بعملية مزج وتركيب فخرجت علوم عربية اسلامية استساغها الغرب ، حينما وصلت اليه ، وبنى عليها الحضارة التي يتمتع بها اليوم .

احتوى التراث الطبي اليوناني أفكار وتعاليم وضعت لأقوام يختلفون عن العرب ، بأجسامهم وطبائعهم وامراضهم ، والعقاقير المتوافرة لديهم ، لذلك كان لابد لهذه المخلفات العلمية من شروح وتعديلات وحواشي ، حتى تتلاءم مع الأحوال العقلية والصحية لسكان البلاد الاسلامية .

لقد كان على الباحثين في العلوم الطبية ، وعلى رأسهم الشيخ الرئيس ، أن يقوموا بدراسة الأمراض والأوبئة المنتشرة في مناطقهم ، ويفتشوا عن الأدوية الملائمة وطرق العلاج الشافية .

وامتازت مؤلفات ابن سينا بالتنسيق والتبويب ، وغزارة المعلومات ،وكثرة الملاحظات والمصطلحات . وقد قام الأب الدكتور شحاتة قنواتي باحصاء تلك المؤلفات فبلغت (٢٧٦) بين كتاب ورسالة . وأحصيت مؤلفاته الموجودة حالياً في المكتبات الشرقية والغربية فبلغت حوالي (٦٨) مؤلفاً .

كان ابن سينا عالماً موسوعياً ، ألف في جميع العلوم ، ولكن اهتم بصورة خاصة بالفلسفة والطب . وقد حار النقاد في وصفه ، فبعضهم اعتبره فيلسوفاً أكثر منه طبيباً ، وبعضهم اعتبره أميراً للأطباء خلال العصر الوسيط ، دون منازع .

لقد قام بعضهم بتصنيف مؤلفات ابن سينا ، بحسب المواضيع ، فوجدها كما يلي :

٤٣ — في الطب ٢٤ — في الفلسفة ٢٦ — في الطبيعيات ٣١ — في علم اللاهوت ٢٣ — في علم النفس ١٥ — في الرياضيات ٢٢ — في المنطق ٥ — في تفسير القرآن ، إلى جانب مراسلاته ومؤلفاته في الزهد والقصص والعشق والموسيقى .

كان ابن سينا شاعراً وناظماً ، اتقن اللغة العربية ، ودون فيها جميع مؤلفاته ، عدا رسائل قليلة العدد كتبها باللغة الفارسية . وقد حاول أحدهم ، ويدعى أبو منصور الجبائي ، ان يطعن في براعة الشيخ الرئيس وتمكنه من قواعد اللغة العربية ، فجاءه ابن سينا بدليل أفحمه ، والقصة طويلة ورد ذكرها في تاريخ ابن ابي أصيبعة .

ولكي يبرهن ابن سينا على تضلّعه واتقانه لهذه اللغة ، فقد قام بوضع كتاب دعاه (لسان العرب) ، لم يصنف في اللغة مثله . ولم ينقله في البياض حتى توفي ، فبقي على مسودته ، لايهتدي أحد إلى ترتيبه .

لم يكن ابن سينا سطحياً في دراسته وعلمه وتفكيره ، وقد وصفه تلميذه الجوزجاني فقال : « وكان من عجائب أمر الشيخ اني صحبته وخدمته خمساً وعشرين سنة ، فما رأيته ، اذا وقع له كتابٌ مجدد ، ينظر فيه على الولاء ، بل كان يقصد المواضع الصعبة منه ، والمسائل المشكلة فينظر ماقاله مصنفه فيه ، فيتبين مرتبته في العلم ، ودرجته في الفهم » .

أما الحكم على اصالة ماكتبه ابن سينا ، في شتى العلوم ، فهو أمر يحتاج إلى دراسة متعمقة ، يقوم بها مجموعة من الاختصاصيين ، كل بحسب علمه .

ولكن من العبث أن نقارن الطرق التي اتبعها ابن سينا ، في تشخيص المرض ومعرفة أسبابه ومداواته ، مع ماتوصل اليه علم الطب الحديث ؛ ذلك لأن وسائل التجربة التي أتيحت له ولأمثاله من الأطباء ، حتى عصر النهضة ، كانت قليلة وبدائية . لذلك لجأ إلى الفلسفة والخيال لكي يفسر كثيراً من الحوادث الطبيعية والفيسيولوجية ، التي لايمكن تشخيصها حالياً الا بأدوات وطرق فيزيائية اوكيميائية متقدمة .

عقيدة ابن سينا — التزامه بالدين — وخاتمته :

سبق أن ذكرنا في سيرة حياة ابن سينا ، ان والده كان ممن أجاب دعوة المصريين (الفاطميين) ، وانه كان من الاسماعيلية . كما صرح بأنه كان يجتمع باصدقاء والده ، فيستمع لمناقشاتهم وأقوالهم ويدركها ، ولكن نفسه لم تستجب لدعوتهم .

ومن الثابت ان ابن سينا كان شيعي المذهب ، معتدلاً ، لم يشترك بالمنازعات المذهبية ، لكنه كان متأثراً بأفكار المعتزلة واخوان الصفا . وقد بقي طول حياته يسعى للتوفيق بين العقل والنقل ، بين الفلسفة والدين .

ولعل أسوأ ماوجه اليه ، من نقد وتجريح ، هو اتهامه بالكفر والزندقة ، وعدم الالتزام بما يأمر به الدين . وقد اختلف الباحثون في هذا الشأن ، فمنهم من قال بأن ابن سينا كان مسلماً مخلصاً ، قانتاً زاهداً . وفي أقواله وأشعاره أمثلة كثيرة ، منها وصيته لأبي سعيد بن أبي الخير الصوفي ، التي ورد نصها كاملاً في كتاب عيون الأنباء .

ومنهم من قال بأن فلسفة ابن سينا مملوءة بالالحاد والكفر ، وان تصوفه ، وما جاء في أقواله وأشعاره ليس سوى ستار حجب فيه هذا الالحاد . والرأي الأخير هو رأي الامام الغزالي ، ذكره في كتابيه تهافت التهافت ، والمنقذ من الضلال ، حيث كان من أكبر اللائمين لابن سينا ، في فلسفته ومعتقداته ، وشربه واستهتاره . وقد جمع ماغلط به ، هو وأمثاله من الفلاسفة المسلمين ، فأوجب تكفيرهم في ثلاثة وتبديعهم في سبعة عشر .

كان أبو عبيد الجوزجاني ، تلميذ ابن سينا ، معجباً باستاذه ، فأراد أن يصف حياة معلمه ، اهواءه وميوله ، وصفاً صادقاً . ويبين مدى انهماكه في العلم والتعليم ، إلى جانب استرساله في حياة اللهو والطرب . ومما قاله : « كان يجتمع في داره طلبة العلم ، وكنت أقرأ من الشفاء ، وكان يقرىء غيري من القانون نوبة . فإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم ، وهيء مجلس الشراب بآلاته ... وكان التدريس بالليل ، لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير .... » .

لم يكتف الجوزجاني ، بهذا الوصف الذي أساء فيه إلى سمعة الشيخ الرئيس من حيث لايدري ، بل تطرق لحياته الخاصة ، فزاد الطين بلة ، وخاصة حينما قال :

« وكان الشيخ قوي القوى كلها ، وكانت قوة المجامعة ، من قواه الشهوانية ، أقوى وأغلب ، وكان كثيراً مايشتغل به فأثر في مزاجه .... » (فقرات من عيون كتاب الانباء)

استغل هذه الرواية وغيرها بعض المؤرخين والمؤلفين ، واتخذوها حجة للطعن بسلوك ابن سينا ، فقال بعضهم « دأب ابن سينا ، خلال خدمته سلاطين بلاده ، وفي سني تنكره وتنقلاته ، على التأليف والمراسلة ، وحضور مجالس العلم والجدل ... ولكنه في الوقت نفسه كان شديد الاسترسال في الملذات ، ومقارعة كؤوس الخمر ، واستفراغ القوى الشهوانية بالفسق . ولا شك أن حياة كهذه قد أفسدت على هذا العبقري الفذ وفرة انتاجه ، كما افسدت استقلاله الفكري وتجاربه العملية » . (فهرس المخطوطات الطبية – سامي حمارنة)

لسنا بحاجة إلى كثير من البحث والشرح لاثبات التحامل في هذا الرأي وخطئه ؛ ذلك لأن ابن سينا كان على العكس وافر الانتاج ، بالنسبة لحياته القصيرة . كما ان انتاجه اتصف بكثير من العمق والجهد والتمحيص ، لذلك لايجوز القول بأن حياته الجنسية قد طغت على تفكيره ، وقلصت انتاجه وأفسدته .

لم يكن ابن سينا شاذاً أو مفرطاً في سلوكه الخاص ، ذلك لأن مجالس الأنس والطرب ، وامتلاك الجواري وتعدد الزوجات، ، كانت من الأمور الشائعة لدى أفراد الشعوب الشرقية ، من الأغنياء ، وخاصة بعد انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد .

لم يشأ ابن سينا أن يقيد حريته ارضاء للآخرين ، أي لم يكن منافقاً . لقد شرب الخمر جهاراً وصرح بذلك في أقواله وكتبه ، مما يجعلنا نعتقد بأن ذلك كان عادة شائعة يقوم بها الكثيرون خفية او جهارا . ولكن ابن سينا يسعى كعادته ، في قواعد حفظ الصحة ، الى الاعتدال في كل شيء . وقد شرح ذلك في أرجوزته فقال :

في الشـرب لاتقصد إلى الكثـير ... واقنـع مـن النبيـذ باليسـير
لاتدمن النبيذ كـل يـوم ... ولا تكـن تشـرب بعـد الصـوم
ولا عـلى الطعـام ذي اللطافـة ... ولا على الغذاء ذي الحرافـة
إياك أن تسكر طول الدهـر ... وإن يكن فمـرة في الشهـر

خاتمة ابن سينا :

كان ابن سينا في أول حياته يعمل كطبيب ممارس . وكان له كثير من الزبائن،هم السبب في نشر الشهرة التي أوصلته إلى قصور الأمراء السامانيين . وحينما ذاق طعم المجد في جوار هؤلاء الأمراء قرر التفرغ لخدمتهم ومجالستهم نهاراً،والانصراف إلى التأليف والتدريس ليلاً .

كانت حياة ابن سينا مهددة دائماً من قبل اعدائه الغزنويين وأتباعهم ، اعداء الفلاسفة ، من المتزمتين ، بالاضافة إلى حساده الكثيرين . لذلك اضطر للسفر والتنقل ، للالتجاء إلى أماكن يشعر فيها بالأمان والاطمئنان في ظل أحد الأمراء المتنفذين .

لقد أثرت حياة التشرد والقلق في جسم ابن سينا فأصيب بالقولنج ، وهو مرض معوي يعسر معه خروج الثفل والريح . وفي يوم واحد اضطرلحقن نفسه ثمان كرات بالأدوية المسهلة ، مما أدى لاصابته بالسحج والصرع . وأصبح من الضعف بحيث لايقدر على القيام . ومع ذلك لم يتوقف عن الافراط في أمر المجامعة ، كما يقول تلميذه ، فكان ينتكس ويبرأ من علته . وحينما شعر بأن قوته قد سقطت اهمل مداواة نفسه وأخذ يقول : ان المدبر الذي كان يدبر بدني قد عجز عن التدبير ، والآن فلا تنفع المعالجة . وبقي على هذا أياماً ، ثم انتقل إلى جوار ربه . وقبر تحت السور من جانب القبة في همدان،وقيل إنه نقل إلى اصفهان .

بقي ابن سينا حتى آخر لحظة من حياته يفكر كطبيب وفيلسوف . فهو يؤمن بأن الجسم الانساني باستطاعته أن يدافع عن نفسه تجاه أسباب المرض ، طالما توافرت لديه القوى اللازمة لذلك . وان الموت ليس سوى المرحلة التي يعجز فيها الجسم عن الدفاع .

لذلك قال (ان المدبر الذي كان يدبر بدني قد عجز عن التدبير ، والآن فلا تنفع المعالجة) .

ونظراً لآراء ابن سينا ، العقلانية المتطرفة بالنسبة لزمنه ، فقد كثر أعداؤه من المتزمتين والشامتين به ، في الحياة وبعد الممات ، حتى قال فيه أحدهم :

رأيت ابن سينا يعادي الرجال وبالحُبس مات أخس الممات
فلم يشف مما ناله بالشفا ولم ينجُ من موته بالنجات

ويشرح ابن أبي أصيبعة هذين البيتين فيقول :

وقوله الحُبس يريد انحباس البطن ، من القولنج الذي أصابه ، والشفاء والنجاة ، يريد بهما الكتابين الذين وضعهما ابن سينا .

هذا موجز لحياة طبيب كان له أبعد الأثر في تقدم العلوم والفلسفة خلال العصر الوسيط . عاش في حياته طريداً مطلوباً للسجن والقتل . وبعد وفاته قدروا علمه ومكانته فاحتفلوا به وتنافسوا على قرابته . ونرجو أن تكون قصته هذه مدعاة لتكريم علمائنا أثناء الحياة لابعد الممات .